يتلازمان على الجلوس تحت الشماسي والمناشف اتقاءً لشمس الصيف اللاهبة في دمشق، ويتحدّثان في مواضيع تهمُّهما من سياسةٍ وأدبٍ ودين، ويتفاهمان وإنْ كانت آراؤهما على الغالب متعارضة ثم يسكتان، وينغمس كلٌّ منهما في ما يقرأه من جريدة أو رواية، مختلسًا النظرَ إلى الصبايا الفاتنات اللواتي يتمشّين حولهما.

ولكنّ ضيا لم يستقرّ نفسيّاً في دمشق أبدًا فهو في تلك الفترة أيضًا ابتدأ بالتخطيط لشراء منزلٍ في لوس أنجلس والعودةِ إليها مع ضحى وعائلتها لكنّ ذلك لم يحصلْ، وأظنُّه كان مدركًا لكون ذلك المخطَّط حلمًا لن يتحقق بدليل تباطُئه في تنفيذه، ربما لأنّه لم يَرْغب في افتتاحيةٍ حياتيةٍ جديدةٍ مع اقتراب النهاية التي كان يحسّ بها إحساسًا مبهمًا في البداية سرعان ما تحوّل يقينًا عندما شُخِّص مرضُ السرطان لديه في نهاية التسعينيات.

عاش ضيا أيامَه التالية في دمشق تحت هاجس الموت. وقد كان يرغب في استبطائه لكي يرى الألفيةَ الجديدة، التي كانت في رأيه ستبدأ عام ٢٠٠١ لا ٢٠٠٠، ولكي يصفّي ممتلكاتِه المتواضعة، ويَضْمنَ تحقيقَ وصيّته التي لا تحوي سوى شرطيْن يؤكّدان رغبتَه في الانمحاء من دون كثير ضوضاء... مع أنّه قام بمحاولةٍ متأخِّرة ومتردِّدة لمدافعة الموت عندما قرّر فجأةً مغادرةَ دمشق والذهاب إلى ضحى في أكسفورد، كما يعود المرءُ إلى حبّه الأول وإنْ خيالاً في لحظاتِ نهايته. وحاول، وحاولتْ ضحى معه لفترة، التخطيطَ لمستقبلٍ أطول ممّا كان في حوزته: فهما كانا يخطّطان لرحلة إلى الأندلس، حلم الحضارة العربية الذهبي الضائع، التي لم تُتَحْ له قطّ زيارتُها رغم طول ترحاله في العالم. وابتدأا جديّاً بحجز الفنادق والطائرة. ولكنْ عندما جاء الرأيُ الطبي النهائي بعد أشهر من تردّد ضيا في السعي إليه، كان رأيًا باترًا، رغم أنّ ضحى حَمَتْه من سماعه وإدراكِ حدّته. ولا أدري إلى أيّ مدًى كان ضيا مدركًا لقرب النهاية عندما كانت قريبة فعلاً، ولكنّي أرجّح أنّه كان واعيًا بذلك ويحاول تهيئةَ نفسه له. ولذلك أظنّ أنّه قال لي «تعال» عندما هاتفتُه من بوسطن لأسأله إنْ كان يظنّ أنّ مجيئي إليه أمرٌ ملحّ وقد جئتُه، لأجدَه يعيش أيامَه الأخيرة مع مسكّنات الألم التي منحتْه شعورًا اصطناعيّاً بالراحة، محاطًا ببعضِ مَنْ أحبّ ومَنْ أحبَّه. وكان ذهنُه يَعْمل حتى لحظاته الأخيرة، وذكرياتُه تتدفّق، لتؤكّد توقُّدَه واستمرارَه وتعلُّقَه بالدنيا التي عرف والتي يريد استعادتَها في آخر لحظات وعيه. وطفق يتحدّث عن حياته حديثَ العارفِ بجمالها، والمعترفِ بجمائلها عليه، والراغبِ في المزيد من ذلك كلِّه ولقد خدعتني مظاهرُ التوقّد، كما لا أظنّها خَدَعتْ ضحى في الأيام الأخيرة، ولكنّها كانت محضَ مظاهر، إذ لم يُكْمل الأسبوعَ في مشفاه الأخير.

واليومَ، وقد مات ضيا، فقد بقيتْ منه نفحةُ ضيا.

الكويت والقاهرة وكامبردج

(شباط ٢٠٠٠ ـ آب ٢٠٠٥)

لقد وضع يديه تحت إبطيه، ولو أنّه قربهما الآن من أنفه لشمّ رائحته، وربما عرف ألاّ شيء يستحقّ عناءَ ما فعل. كان ذلك آخر ما فكّر فيه، بعدها لم يدرِ بما أو بمن فكّر. طَردتْ صورةُ الجسد الملطّخ بالدم والمنكفئ على الإسفلت كلَّ التفاصيل الأخرى، وودّ لو فرّ منها، لكنّه كان يجرّ شيئًا ثقيلاً خلفه ويلهث: أمه، وأخته، وأباه، والحياة التي عاشها من قبل والتي لن يعيشها من بعد، والأشياء التي ظنّ أنّها تنتظره، فاكتشف أنّه هو من سيظلّ ينتظرها، وربما لن تجيء، والموت، الموت الذي فرّ من جواره. الموت الذي انتظره في شارع خلفي من شوارع المدينة المنوّرة كي يقهقه بلا حشمة.

ليلى الجُهني روائية سعودية، وهذه روايتها الثانية بعد الفردوس اليباب (دائرة الثقافة والإعلام ـ الشارقة).